كم لغة كان يعرف عنترة؟

كلما تذكّرت عنترة وجدت نفسي في حقبة زمنية فيها كثير من المتعة الفكرية والبحث الطريف، ووجدت نفسي أسبح في هذا الموضوع دون توقّف. ولعلّ القارىء ما يزال يذكر بدء حديثي في هذه الكلمات حين ثبت لدينا أن عنترة بن شدّاد لم يكن عبسيًّا، ولكنه كان سودانيًّا وُلِد ونشأ وترعرع في الجزيرة العربية، بل كان أوّل سوداني شاعر فارس يعيش في المهجر رغم أنفه، وعرفناه خلاسيًّا تنتمي أُمّه إلى حام ووالده إلى سام.

إلاّ أن سؤالي الآن هو كم من اللّغات كان عنترة يعرف؟ وهذا ما يجعلني أتقصّى هذا الموضوع من الناحيتين التاريخية والأدبية. ولعلّ أوّل ما أُريد أن أُثبته هنا، هو أن عنترة كان دخيلاً على اللغة العربية؛ لأنها لم تكن لغة أُمّه، ولكنها كانت لغة مُكتسبة من البيئة التي نشأ فيها، ولو قرأ المرء شعر عنترة (غير المنحول) وقرأ شعر غيره من شعراء الجاهلية لوجد أنّ شعر عنترة

يختلف عن غيره بافتقاره؛ إذ أنه يفتقر إلى كثير من حوشي اللفظ، وغريب الكلمات، وهو الأمر الذي يدلّني على أنّ محصول عنترة اللغوي كان محدوداً بعض الشيء. ويرجع إلى سببين، الأول: لأنه كان من أُمّ سودانية يسمّيها العرب زبيبة، وكانت هذه الأمّ غريبة على اللغة العربية، وكانت في نظر العرب بطبيعة الحال «رطانية» لا تعي من الأساليب العربية شيئاً. والسبب الثاني: أن بيئة عنترة في فجر حياته كانت محدودة، فهو نشأ راعياً وسط العبيد من كلّ جنسٍ ولون، ومعنى ذلك أنه كان يعيش بين جماعة تغلب عليهم العُجْمة، ولذلك فإنّ ألفاظهم غير مستقيمة المخارج، وتراكيبهم ليست سليمة البناء. وهذا يعني أن عنترة تعلّم اللغة العربية وهو بين هؤلاء وبين تأثير أُمّه الأعجمي، وبين أوامر سادته العبسيّين. ونجد أن أُذنه الموسيقيّة قد ساعدته على نظم الشعر، ولكن في بحور خاصّة محدودة أقرب إلى الذوق السوداني العتيق منه إلى الذوق العربي المتنوّع.

نعم، لقد خاض عنترة في بحورٍ من الشعر محدودة، ولم يلمس الكثير من البحور؛ لأن ذوقه لم يستطع أن يهضمها، وأذنه الموسيقية لم تتمكّن من استساغتها. وكان البحر المحبّب إليه هو الكامل، أقرب

البحور إلى الرجز، وأنشد في ذلك معلّقته ثم لاميّاته المختلفة وعدداً من دالياته وتائيّاته، فهو بحرٌ قريبٌ حبيب إلى نفسه وشعوره وذوقه الموسيقي. كما أنه أنشد بعض القصائد في الوافر، وهو بحرٌ كما نعلم ونسمع له دقّات طبول أقرب ما يكون إلى الذوق السوداني.

حاولت جهدي أن أجد بعض الألفاظ الغريبة والصُور الشعرية التي لم يألفها العرب، والتي نجمت عن التراث السوداني المنبثق عن والدة عنترة لابنها. وبعد التقصّي وجدت قليلاً من الأمثلة هنا وهناك، ويعزّ عليّ ألاّ أشرك قارئي هذه الكلمات في هذا المعنى الذي يجد النحويّون صعوبةً في قبوله كشاهد نحوي، ولو كان لي أن أقرّر لما قبلت هذا اللفظ على أنه لفظ عربيّ، لأنني لا أعتبر عنترة عربيًا صرفاً، وهو ليس حجّة في اللغة العربية، ولعلّ القارىء يذكر معي قول عنترة لعبلة:

ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيره

منّي بمنزلة المحَبِّ المكْرَمِ

فإن لفظة المُحَبّ بدلاً من الحبيب أمرٌ لم يقل به العرب، ولم يجده النحويّون إلا في قول عنترة، ولعلّ وروده بهذه الطريقة يرجع - كما قلت - إلى تأثير أُمّه

الأجنبي عليه، ولَكْنَتها في الكلام، وهي لَكْنة ربما عاودت عنترة أحياناً، تماماً كما يؤنّث بعض غير العرب اليوم المذكّر، ويعكسون الأمر في المؤنّث.

هذه بادرة يسيرة قدَّمتها لكي أدلّ على أن عنترة لا يمكن أن يُعتبر حجّة في اللغة العربية، ولكنه كان مستشرقاً عظيماً لو عاش في هذا الزّمان لنال صيتاً ومنصباً علميًا مشرّفاً!

ومن الدلائل على أنّ محصول عنترة اللّغوي محدودٌ بعض الشيء إذا قِيس بزملائه من أصحاب المُعلّقات والمطوّلات. ما جاء في معلّقته أيضاً عندما كان الأبطال:

يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطانُ بئرٍ في لَبان الأدهم
ما زلتُ أرميهم بثُغرة نحره
ولَبانِه حتى تسربل بالدَّم
فازورّ مِنْ وَقْع القنا بلَبانه
وشَكا إليَّ بعبرةٍ وتَحَمْحُم

فهو في هذه الأبيات يكرّر كلمة «لبان» ثلاث مرات دون أن يجد لها مرادفاً، وعجز عن استعمال غيرها بدلاً منها مما أظهر عدم تضلّعه في اللغة العربية،

بالرغم من السنين الطويلة التي عاشها في مهجره. وقد يقول قائل بأنه لو استعمل كلمة صدر بدلاً من لبان لانكسر البيت. ولكنه كشاعر كان في إمكانه أن يستعمل الكلمة مع تغيير في الكلمات لكي يحفظ الموسيقى، وهذا شأنه هو وليس شأني.

ولعلّ من دلائل قصوره في البيان ما جاء في معلّقته أيضاً حين قال في مطلعها:

هـل غـادر الـشـعـراء مـن مُـتَـرَدَّم

أم هـل عـرفْـتَ الـدارَ بـعـد تَـوَهُّـمِ

وبالرغم من أن الشطرتين لا ارتباط بينهما في المعنى، إلا أنني سأغفل ذلك وأغفر له هذا القفز من موضوعٍ لآخر. لكنني وقفت حائراً أمام المحاولات الكثيرة التي قامَ بها شارحو المعلّقة في توضيح الشطرة الأُولى، وخاصة ما تعنيه كلمة متردَّم.

وسأسوق هنا ما قاله التبريزي في شرحه للقصائد العشر:

«متردّم من قولك: ردمت الشيء إذا أصلحته، ومعناه: هل أبقى الشعراء لأحدٍ معنى إلاّ وقد سبقوا إليه، وهل يتهيّأ لأحد أن يأتي بمعنى لم يسبق إليه؟ ويروى من مترنّم، والترنّم صوتٌ خفيّ ترجعه بينك وبين نفسك».

obeikandl.com

انتهى شرح التبريزي، ونحن نشكره لمحاولته حلب هذه الكلمات العنترية ليخرج إلينا بهذا المعنى. ولكن لا أرى أنّ شرحه مقنع لما في كلمات عنترة من فحوى، ولا رَيْب أن المعنى الأصلي ما زال في بطن الشاعر، وأنه لم يتمكّن من إبرازه بوضوح.

والغريب في الأمر أنّ كتّاب الأدب العربي جعلوا من هذا المطلع فاتحة لثورة شعرية؛ إذ خرج بها عنترة عن مألوف مطالعهم من حيث البكاء على الأطلال، كما كان يفعل غيره من الشعراء. وفي ثورة حماسهم هذه أمام التجديد الذي استحدثه عنترة نسوا تقصيره في الإفصاح عن نفسه، وهكذا بقي التجديد خالداً وتقلّص التقصير في المعنى.

في هذه المعلّقة معنًى آخر ما زال يكتنفه الغموض بالرغم من شرح الشارحين، وهو ما جاء في قوله:

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقْتُلُ قَوْمَها

زَعْماً لعَمْر أبيكَ ليس بمِزْعَمِ

فليس من الواضح ما يعنيه عنترة من قتل قومها زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم، ولئن أراد القارئ أن يعرف ما قال التبريزي، فهو يقول: «عُلِّقتُها» أي أحببتها، وعرضاً معناه: كانت عرضاً من الأعراض

اعترضني من غير أن أطلبه. وفي قوله: «زعماً» قولان، أحدهما: أني أحبّها وأقتل قومها، فكان حبّها زعماً مني. والقول الآخر: إن أبا عمرو الشيباني قال: يقال: (زعم يزعم زعماً) إذا طمع، فيكون هذا الزعم اسماً يعني الزعم. وقال ابن الأنباري: معناه علّقتها وأنا أقتل قومها، فكيف أحبها وأنا أقتلهم؟ أم كيف أقتلهم وأنا أحبّها؟ ثم رجع مخاطباً لنفسه، فقال: «زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم» أي هذا فعل ليس بفعل مثلي، والزعم: الكلام... إلخ.

أراد الشرّاح أن يوضحوا ما جاء في قول عنترة وأراهم قد افتتنوا بشخصه، فأخذوا يغوصون بحثاً عن المعاني دون أن يجرؤ أحد منهم على أن يقول لنا بأنّ عنترة لم ينجح في الإفصاح عمّا جال بخاطره حين أنشد هذا البيت. لقد بحثوا دون جدوى عن معنى يمكن أن يستقيم مع هذه الكلمات، ولكن لم ينجحوا، ولم يُعلن واحد منهم عن رأيه بصراحة في قول عنترة. لا ينصبّ حديثي هذا في انتقاص عنترة؛ لأنه ليس لي رغبة في ذلك. ولا أُريد أن أتقصّى قصوره، ولكنني أردت أن أذكر بأنه أحياناً يضيق صدره ولا ينطلق لسانه، كما في هذه الحالات التي ذكرتها. ولكنه في بقية أحاديثه وقصائده نجده منطلق اللّسان في ذرابة

obeikandl.com

وفصاحة قلّ أن يُضاهيه فيها عربيٌّ خالص.

إنني معجب بمقدرة عنترة الفائقة في التحدّث باللغة العربية السليمة، وممّا لا شكّ فيه أنه أحسن السودانيّين طرًّا معرفة بهذه اللغة، وإنني أشكّ كثيراً في أن هناك من إخوانه السودانيّين من يستطيع أن يفوقه علماً بها، إلاّ أننا لا نستطيع أن نُقارنه بشعراء المعلّقات الآخرين.

ولكنهم وإن كانوا قد تفوّقوا عليه بعض الشيء في اللغة العربية، فممّا لا رَيْب فيه أنّه كان يفوقهم في غيرها من اللّغات، لأنّني كما قلت أعتقد أنّ عنترة كان يعرف أكثر من لغة الضادّ، فما هي تلك اللغات التي كان يعرفها عنترة؟